لمحات في حياة الطبقة الفلاحية في العراق الوسيط

الدكتور مضر الدوري

ان المسيرة النضالية التي خاضتها الجماهير الكادحة عبر التاريخ اثبتت ان الهدف الاساس لأي حركة ثورية هو قلب البنى الاقتصادية والاجتماعية القديمة . الاقطاعية منها او الرأسمالية . وابدالها ببنى جديدة قائمة على الاشتراكية والديمقراطية الشعبية .

ان هذه الحركات الثورية تتسم . عادة . بسلوكية خاصة اساسها الفهم العميق والايمان الملتزم بفكرة الصراع الطبقي كمحرك رئيس وقادر على تعبئة الجماهير وتوجيهها من اجل استمرارية الثورة والحفاظ على مكتسباتها . ان هذه السلوكية هي الكفيل الوحيد الذى يمنع امتصاص ثورة الكادحين من قبل اصحاب الامتيازات او الانتهازيين . ويمنع كذلك انحراف مبادئ الثورة وراء شعارات ترفعها عادة بعض العناصر البرجوازية التي لم تتمكن خلال فترات النضال . من الانقلاب على واقعها الطبقي والتحرر منه والانتظام مع مسيرة الكادحين .

في الوقت الذى نؤكد فيه على ان سلوكية المناضل الثورى يجب ان تتميز بالوعي العميق لطبيعة الصراع الطبقي الذي تخوضه الجماهير الكادحة . نؤكد كذلك على ان هذا الوعي يجب ان يرتكز على فهم تحليلي للجذور التاريخية لكل بنية من البنى التي تعمد الثورة على قلبها وتغييرها . وبذلك يسهل فهم جذور الواقع الذي تحياه وتناضله الجماهير الثائرة وعندها سيسهل الانطلاق بخطى سليمة وواسعة نحو مستقبل افضل .

انطلاقا من ذلك ساحاول هنـا ان القى بعض الضوء على الوضع النضالي الذى عاشته الجماهير الفلاحية الكادحة في العراق في عصوره

الوسطى. وقبل ان ادخل في الموضوع أود ان اشير الى نقطتين هامتين:

اولا- ان حضارات العصور الوسطى - والحضارة العربية الاسلامية واحدة منها - كانت حضارات ارستقراطية ازدهرت على حساب مصلحة الجماهير الكادحة. فاعضاء الطبقة الارستقراطية المالكة وربيبتها الفئة الراقية من الطبقة البرجوازية. كانوا هم المنتفعون من الواقع الحضارى الذى عاشوه. بينما نجد ان الغالبية العظمى رزحت تحت وطأة الاستغلال البشع.

ان تقييمنا للازدهار العظيم الذى شهدته الحضارة العربية الاسلامية في العصور الوسطى والمتمثل في التراث الفكرى والعملي المبدع الذى ساهمت فيه في مضمار الحضارة الانسانية. لا يمنعنا ابدا من كشف بعض الجوانب السلبية في تلك الحضارة والتي كانت تعمل على اضعافها. وما احوجنا الان وفي مثل هذه الظروف الى ان نكون اكثر واقعيين ونمعن النظر في تراثنا الحضارى القومي لنستكشف عوامل القوة والضعف في تلك الحضارة ونعمل على بعثها من جديد بعد ان نسقط منها سلبيات الماضي ونطبعها بالطابع التقدمي الثوري.

ثانيا- ان فن التدوين التاريخي هو في الحقيقه أحد أهم المظاهر الادبية في تراث الحضارات الانسانية. وهو يعكس طبيعة الحضارة التي ينسب اليها. اذن فان فن التدوين التاريخي للحضارة العربية الاسلامية يمكن ان يعكس لنا طبيعة تلك الحضارة التي وصفناها بانها حضارة الطبقة الارستقراطية المالكة وربيبتها الفئة الراقية من الطبقة البرجوازية.

فكتب التاريخ العديدة. سواء ذات الصبغة العامة او المحلية. نجدها تهتم اولا وعلى نطاق واسع بأسماء وأنساب واقوال وافعال وصفات رجال الطبقة الارستقراطية والبرجوازية وتكاد تغفل - إلا ماندر - احوال الطبقة العامة. وحتى في حالة ذكرها شيئا عن حياة العوام - الذين كانوا يوصفون من قبل مؤرخي تلك التواريخ بالرعاع، السلفة، الغوغاء، الطغام، السوقة.. الخ

فأنه غالبا ما يكون ذلك الذكر مقتضبا، مشوشا، مبالغا فيه، ومتحيزا ضد العامة. من ذلك كله جاءت صعوبة جمع المادة التاريخية اللازمة لرسم صورة اكثر واقعية لحياة الطبقة العامة وخصوصا الفلاحين منهم.

على اية حال ، ان المعلومات المتجمعة لدينا تشير الى ان الفتح العربي الاسلامي لكل من العرق وسوريا ومصر كان ضربة قوية للطبقات المالكة الاقطاعية الساسانية والبيزنطية. فاقطاعيات هذه الطبقات قد استصفيت من قبل الدولة الاسلامية ووضعت تحت تصرف الخليفة.

ان الضربة كما قلنا كانت موجهة للطبقة المالكة ألاقطاعية نفسها الاانها لم تكن موجهة لقلب البنى الاقتصادية والاجتماعية التي يقوم عليها النظام الاقطاعي الذي تسود فيه صيغ من الانتاج القائمة على الاستغلال الجماعي او الفردي. على العموم، ان الحكم الاسلامي اقر طبيعة الكثير من البنى الاقتصادية القديمة وابدل فقط قسماً من المنتفعين؛ الاانه لم يغير صيغ الانتاج مما مهد الطريق الى تبني البنى الاقطاعية من قبل القبائل العربية الفاتحة بدوية كانت ام حضرية. بذلك نجد ان المجتمع العربي تحول من قبلي رعوي الى قبلي زراعي وتحولت الارستقراطية القبلية الى ارستقراطية اقطاعية وتجاريه. فما أن فتح السواد «ارض العراق» حتى طالب الفاتحون . خصوصا القواد الارستقراطيون والبرجوازيون الخليفة عمر بأن يقسمه بينهم. كذلك حدث نفس الشئ عند فتح الشام ومصر. ولو فتشنا عن زعماء هذه الحركة المطالبة بالتقسيم لوجدنا بينهم عبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام، وبلال الحبشي .

ان تطلعات هذه الفئة نحو احتجاز المزيد من الثروات والاراضي الزراعية تنعكس في الحاحهم الشديد على الخليفة عمر بالتقسيم . فما كان من عمر الاان رفع يده الى السماء يدعو الله عليهم قائلا «اللهم اكفني بلالا واصحابه» وتذهب الرواية الى ان الله استجاب دعائه فمات بعضهم بطاعون عمواس سنة ١٨هـ. «١»

استطاع عمر – الى حد ما– ان يقف بوجه ذلك التيار الذي ترأسه بعض

---

(١) أبو يوسف ، الخراج ص ٢٦ .

الزعماء من اجل الاستيلاء على أوسع قدر من الاقطاعيات. الا ان هذا لم يدم اكثر من فترة حياة عمر التي انتهت سنة ١٨هـ .

بل اننا نجد بعض الروايات تشير الى ان عمر نفسه كان قد اقطع بعض القبائل اقطاعات خاصة. وعند مجيء عثمان بدأت الامور تتغير بسرعة وتزداد الاقطاعات على حساب الاراضي الخراجية .

ان التطلعات نحو امتلاك الاقطاعيات واعتبان الفلاحين ارقاء اتخذت شكلا قانونيا تمثل باقوال كالتي تنسب الى الفقيه شريك حيث قال «اهل السواد ارقاء» وكذلك قال« الجزية التي تؤخذ منهم انما هي خراج . مثل ما يؤخذ من العبد الخراج ولا يسقط ذلك عنهم اسلامهم. «٢» كذلك نجد ان سعيد بن العاص والي عثمان يقول ان « السوادبستان قريش ماشئنا اخذنا منه وماشئنا تركناه » . «٣»

من ذلك يبدو ان المطالبين بالتقسيم قد كسبوا المعركة اخيرا وتمكنوا من امتلاك اراض واسعة بوسائل مختلفة . ولقد وافق ذلك تحالف بين طبقة الدهاقين الزرادشتية والطبقة المنتفعة من المسلمين. حيث ان الدهاقين وجدوا ان من مصلحتهم التحالف مع المالكين الجدد للحفاظ على مصالحهم الاقتصادية والاجتماعية . وبنفس الوقت وجدت الطبقة المنتفعة المسلمة انها بحاجة الى هذا التحالف لسد النقص الذي تشكوه في الخبرة والتنظيم في تسيير كافة متطلبات الاستغلال الاقطاعي خصوصا جباية الضرائب من الفلاحين .

من خلال هذا التحالف استطاع الدهاقين ان يوقعوا جل الضريبة على الفلاحين في حين اعفوا انفسهم من الجزء الاكبر منها «٤». ان هذا التحالف الطبقي انعكس ايضا في قول احد الفرس ان « الشريف من كل قوم نسيب الشريف من كل قوم «٥». لقد فرض المالكون الجدد بمساعدة الدهاقين انواعا كثيرة من الضرائب على الفلاحين. فاضافة الى الضريبة الاصلية « الخراج »

---

(٢) الطبري . اختلاف الفقهاء ص ٢٢٥ .

(٣) الدوري . النظم الاسلامية ص ١٣٨ .

(٤) الطبري ج ٨ ص ١٧٧ ، ص ١٩٦ . ابن الاثير . الكامل ج ٥ ص ٤٥ .

(٥) الدوري . النظم ص ١٥٠ .

كان على الفلاح ان يدفع هدايا النوروز والمهرجان. الآبين « الرسوم ». اجور الضرابين « سكاكي النقود ». ثمن الصحف. فرق العملة « اختلاف وزن النقود ». اضافة الى اعمال السخرة والاضطهاد .

في تلك الاوضاع الاقطاعية القائمة على ابشع انواع الاستغلال، لم يجد الفلاح وسيلة لتغيير مصيره الا الثورة بوجه مستغليه. وتم ذلك فعلا عندماانضم الكثير من الفلاحين الى ثورة المختار بن الاشعث « سنة٨١-٨٢هـ » الا ان هذه الثورة - وبسبب عفويتها- استغلت من قبل بعض صغار الملاك الذين اسهموا فيها. فنجدهم في بداية الثورة يحرقون سجلات الديوان وبذلك ضاعت الوثائق التي تثبت نوع وعائدية الاراضي فتسنى لهؤلاء ادعاء عائدية اراضي اوسع سواء كانت من اراضي الصوافي او الخراج. على اية حال فالثورة اخمدت ولم يكن نصيب الفلاحين منها الا المزيد من الاستغلال والاضطهاد.

لم يكن الاضطهاد موجها لفلاحي العراق بل ان مصر شهدت نفس الشيء فهذا مسؤول الضرائب في مصر يكتب الى سليمان بن عبد الملك قائلا « يا أمير المؤمنين اني ما جئتك حتى نهكت الرعية وجهدت. فان رأيت ان ترفق بها وترفه عنها وتخفض خراجها ما تقوى به على عمارة بلادها وصلاح معايشها فافعل . فانه يستدرك في العام المقبل . فاجابه سليمان : هبلتك امك احلب الدر فاذا انقطع فأحلب الدم والنجا » «٦» ان مثل هذا الاستغلال البشع كان السبب في ثورات الفلاحين فيمصر في سنوات ١٠٦هـ . ١٢١هـ . ١٣٤هـ. «٧»

ان انتفاضات الفلاحين تلك تشير الى ان اصلاحات عمر بن عبد العزيز التي شرعت سنة ١٠٠هـ لم تدم اكثر من سنة واحدة وعلى فرض انها طبقت في خلال تلك السنة في كافة انحاء الامبراطورية الاسلامية . ولكي يحمي الفلاح او المالك الصغير نفسه من جور موظفي المالية « عمال الضرائب » وظلم الولاة كان يضطر الى الجاء ارضه وضياعه الى الامراء وبطانتهم وينضوي تحت سلطتهم. الا ان هذا ادى الى فقدانه ارضه وبالتالي الى اتساع ملكيات اولئك المتنفذين. كذلك نجد ان الكثير من الفلاحين تركوا ارضهم وهاجروا الى المدن مما ادى

---

(٦) الجهشياري ص ٥١ - ٥٢ .

(٧) الدوري النظم ص ١٥٨

الى خراب كثير من الاراضي الزراعية من جهة والى تضخم عدد البروليتاريا في المدن، الذين كثيرا ما استخدموا كعمال بأجر زهيد جدا او اعيدوا قسرا الى قراهم كما فعل الحجاج.

ان تجمع هذه الطبقة من البروليتاريا كان له اثره في التطورات الاجتماعية والاقتصادية التي شهدها العراق. حيث انهم كانوا مهيئين للمشاركة في كل انتفاضة او اضطراب.

لقد تبنى بعض الامراء الامويين – لمصلحتهم الخاصة – قضية الفلاحين المعدمين، فهذا يزيد بن الوليد الذي ثار على الوليد الثاني سنة ١٢٦ هـ نجده يؤكد في شعاراته التي رفعها انه يسعى الى «عدم ارهاق الفلاحين وعلى ايقاف حفر القنوات وبناء القلاع» «٨». في نفس هذا الوقت نجد ان الدعوة العباسية كانت تعمل على الاستفادة من تذمر الطبقات المستغلة مؤكدة على مبادئ العدل والمساواة بين جميع المسلمين وداعية الى اقامة حكم الله على الارض. الا ان النشاط الاقتصادي الهائل الذي شهدته بغداد العاصمة والتوسع في الملكيات الزراعية حالما بدد آمال الكادحين فطويت الشعارات التي رفعتها الثورة العباسية بعد ان افرغتها من كل محتوى. عندها وجدت الجماهير الكادحة نفسها مرة اخرى. تحت وطأة الضرائب المجحفة والظلم. فكتاب الخراج لابي يوسف قاضي قضاة هارون الرشيد غني بالشواهد على ذلك. وكمثل فقط نجد ان الفلاحين كانوا يدفعون ليس فقط ضريبة الارض «الخراج» بل كذلك رزق العامل، الموظف المالي، حمولة طعام السلطان. ثمن الصحف والقراطيس، اجور الكيالين، اجور الفيوج. ورواج الدراهم «فرق العملة». هذا اضافة الى انهم كانوا يقامون في الشمس ويضربون الضرب الشديد وتعلق عليهم الجرار ويقيدون «٩». ومما يلاحظ في العراق ان المالكين الكبار كانوا يشترون العبيد من افريقيا ويستخدمونهم في استصلاح الاراضي خصوصاً في البصرة. ان الوضع المزري الذي عاشه

---

(٨) الطبري ج٢ ص ١٨٣٤ - ٣٥.

(٩) ابو يوسف، الخراج ص ١٠٩.

الالاف من العبيد الزراعيين كان السبب في ثورتهم المشهورة بثورة الزنج في النصف الثاني من القرن الثالث الهجرى . وبنفس الوقت ثار بقية فلاحي السواد مع جماعات من العمال والاعراب والتي قادهم في هذه المرة احد الفلاحين يدعى حمدان قرمط.

لقد نجح حمدان في تنظيم هؤلاء الفلاحين واستقطابهم حول عقيدة نتبنى فيها اهم مشاكلهم ووضع الحلول لها ، وهي، باختصار: اقامة مجتمع اشتراكي تنتفى فيه كل صور الاستغلال والطبقية. فيروى انه عندما سئل حمدان عن هدفه في الثورة قال ما معناه « أمرت ان اروى هذه القرية واغني اهلها ، وان انقذهم ، واضع بيدهم ثروة اسيادهم». «١٠» كان من شروط نظامهم الاشتراكي هو« ان يودى كل عضو من اعضائه . . . دينارا في كل سنة .. ثم « دفع » ضريبة كانت تعرف عندهم « بالفطر » وهي درهم كان يؤديه جميع الاسماعيليين « الاعضاء » بدون استثناء ، وضريبة اخرى تعرف « بالهجرة » وهي دينار كان يؤديه كل بالغ وبالغة . . . فكانوا يؤدونها عن طيب خاطر حتى اذا عجز احدهم عن تاديتها اداها عنه غيره راضيا مسرورا . . . « ودعاهم حمدان الى » ان يؤدوا لدار الهجرة « قاعدة الثورة » خمس ما كانوا يملكون او يكتسبون فلبوا دعوته راضين ثم قدروا املاكهم ودفعوا عنها الخمس فرحين حتى كنت ترى المرأة تقدم للداعي « اى مسؤول التنظيم » خمس غزلها والفاعل خمس اجرته فكانت الضريبة قسطا يدفعه الشخص الى صندوق الاخوية. الا ان حمدان لم يكتف بهذه الضرائب بل أمر اهل القرى التي دخلت في دينه ان يحملوا الى محل واحد كل ما يملكون، فلما جمعوه جعله مشاعا بين الاعضاء يتولى توزيعه رجل منهم ذو ثقة فكان يجمع ما كان يحضره الاعضاء من اثاث وحلى وثياب وماكولات ومال ثم يوزعه على المحتاجين من القرامطة حتى لم يبق بينهم فقير، فكنت ترى الرجال منهم يشتغلون برغبة ونشاط والنساء يحملن الى « بيت الجماعة » ما كن يكسبنه من المال حتى ان الاولاد الصغار انفسهم كانوا يقدمون الى مدير البيت ما كانوا ياخذونه من الجعالة « الاجرة » من اصحاب البساتين التي

(١٠) الدوري ، دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص ١٧٩ .

كانوا يحرسونها في النهار ويطيرون الطيور عن اشجارها وبقولها حتى لم يعد احد يملك الا « سيفه وسلاحه ». « ١١ »

من كل ذلك نجد ان هؤلاء الفلاحين استطاعوا ان يعوضوا عن قلة عددهم بقوة وصلابة تنظيماتهم وبالتزامهم بالنظام. لقد ارتفعوا حقا الى مستوى الخطر الذي كان يحيق بهم. فلقد خضعوا اولا الى برنامج من الضرائب المتصاعدة الى ان وصلوا الى درجة انهم الغوا الملكية الفردية واخذوا بالاشتراكية . كما وان هذه المبادئ الاشتراكية التي تبنوها كانت حافزا عظيما لمزيد من المساهمة الفعالة في النشاط الاقتصادي قام بها كل فلاح وعامل عضو في ذلك التجمع .

على الرغم من الضربات القوية التي سددتها السلطات ضد هذه الحركة نجد انها استمرت تقاوم لفترة طويلة وحتى عندما فقدت الحركة قوتها العسكرية في العراق نجد ان مبادئها استمرت سريا بين جموع الفلاحين والعمال .

لقد شهد العراق منذ بداية الثلث الثاني من القرن الرابع الهجري تطورات ذات اثر خطير في شؤون القطر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتي انعكست آثارها من خلال نضال الجماهير الفلاحية .

فالبويهيون ومن بعدهم السلاجقة كانوا غرباء لا تعنيهم كثيرا مصلحة شعب العراق بل كان جل همهم هو امتصاص اكبر قدر من موارد القطر .ومن اسوء ما ابتدعوه في هذا المجال هو الاقطاع العسكري اضافة الى توسيعهم كل صنوف الاستغلال الزراعي الاخرى . فهذا ابن مسكوية احد من عاش فترة التسلط البويهي وخدم سلاطينهم يؤكد ذلك قائلا « وفي هذه السنة «٣٣٤-٩٤٦م» شغب الديلم «الجنود» على معز الدولة شغباقبيحا... فضمن اطلاق اموالهم في مدة ضربها لهم فاضطر الى خبط الناس واستخراج الاموال من غير وجوهها. فأقطع قواده وخواصه واتراكه ضياع السلطان وضياع المستترين وضياع ابن شيرزاد وحق بيت المال من ضياع الرعية وصار اكثر السواد مغلقا وزالت ايدي العمال « موظفي المالية » عنه وبقي اليسير منه من المحلول فضمن...

(١١) بندلي جوزي ، من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ص ١٦٢ - ١٦٤ .

«وكنتيجة لسوء تصرف الجند باقطاعاتهم وجهلهم بشؤون الزراعة» صار الرسم جاريا بان يخرب الجند اقطاعاتهم ثم يردوها ويعتاضوا عنها من حيث يختارون «فاضطربت الامور»، وبطلت المصالح وانت الجوائح على التناء «الزراع» «ورقت احوالهم فمن بين هارب جال وبين مظلوم صابر لا ينصف وبين مستريح الى تسليم ضيعته الى المقطع « صاحب الاقطاع » ليأمن شره ويوافقه... واقتصر المقطعون على تدبير نواحيهم بغلمانهم ووكلائهم فلا يضبطون ما يجرى على ايديهم ولا يهتدون الى وجه تشير ومصلحة ويقطعون اموالهم بضروب الافساد واعتاض اصحابهم مما يذهب من اموالهم بمصادراتهم وبالحيف على معامليهم «١٢»

بعد اكثر من قرن دخل السلاجقة بغداد وعاثوا فسادا الى ان استلم نظام الملك الوزارة سنة ٤٥٥هـ فحاول اصلاح الامور .

على الرغم من ان منطلقات نظام الملك في الاصلاح كانت قائمة على تاكيد وتنظيم الاوضاع الطبقية للمقطعين العسكريين والبيروقراطيين، فهو يبدو دائما وكانه ملتزم جانب الفلاحين محاولا قدر ما يستطيع ان يحد من ازدياد قوة نفوذ المقطعين وعمال الضرائب وكان يعمل بنفس الوقت على تثبيت واجبات الفلاح مع تخفيف العبء عليه .

فنجده يؤكد بان لا صلاحية لرجال الجيش، الذين اقطعوا اراض، على الفلاحين عدا صلاحية استحصال- وباحترام- المبالغ التي خصصت لهم كوارد مالي . وعندما يدفع الفلاحون تلك المبالغ يجب ان يوفر لهم الامان على ارواحهم واموالهم ونسائهم واطفالهم ويجب ان تصان ممتلكاتهم وحقولهم . واذا اراد عدد من الفلاحين ان ياتوا الى بلاط السلطان ليرفعوا شكواهم ضد المقطعين فيجب ان لا يمنعوا من ذلك؛ وان اى مقطع يعمل العكس يجب ان تؤخذ اقطاعيته ويؤدب ليصبح عبرة للاخرين. يجب ان يعلم المقطعون - يقول نظام - ان البلاد وفلاحيها يعودون الى السلطة الحاكمة ، يعني السلطان « ١٣ » .

---

(١٢) ابن مسكويه: تجارب الأمم ج٢ص٩٦-٩٩ .

(١٣) نظام الملك ،سياسة نامة (الترجمة الانكليزية) PP. 22, 33

اما عن حالة الفلاحين الذين يعيشون على ارض تحت اشراف عمال الضرائب فنجد ان نظام الملك ينصح اولئك بان يعاملوا الفلاحين بنبل وان ياخذوا – وبأدب – المبلغ المحدد اخذه فقط . وان لا يطالبوهم بالضرائب الا في الوقت المحدد للجباية، اذ حينما يطالب الفلاحون بالدفع مسبقا– يقول نظام– فستنتابهم المشاكل . ولاجل دفع هذه الضرائب فانهم سيضطرون لبيع حاصلاتهم بسعر النصف عما اذا باعوها وهي تامة النضج . وعندها سيكونوا على حافة الدمار وعندها سيضطرون الى الهجرة .

ان ما يذكره نظام الملك يشير الى ما يلي :

١ . ان الفلاحين تحت النظام الاقطاعي كانوا بشكل عام مثقلين بالضرائب وان فرض ضرائب اضافية كان امرا طبيعيا .

٢– ان الوسائل التي كانت تجبى بواسطتها تلك الضرائب كانت غير انسانية قط ومجحفة .

٣– على الرغم من ان الفلاح كان يدفع كل ما يطلب منه الا انه لم يحصل الا على خدمات قليلة او لم يحصل على اى مقابل ذلك. بل على العكس فان حقله وحيواناته واهله ونفسه كانت غير محمية .

٤– وحيث ان المقطعين او عمال الضرائب كانوا غير واثقين من استمرارهم في اقطاعاتهم لمدد طويلة فقد كان همهم ان يبتزوا ما شاؤا من ثروات قبل ان يعزلوا. وبهذا افقروا الفلاحين اكثر. اما اولئك الذين كانوا يستمرون فترات طويلة في اقطاعاتهم نجدهم يصبحون اقوياء ومستقلين في مناطقهم الى درجة انهم يفرضون ما شاؤا من الضرائب. ولهذا نجد ان نظام الملك عندما يتكلم عن مثل هؤلاء يقرر ضرورة تحديد مدة لأقطاعهم لا تزيد على ثلاث سنوات حتى لا يشعروا بالاستقلال.

٥– لما كان هم المقطعين والعمال الحصول على الاموال وباسرع ما يمكن، فان الضرائب كانت تطلب –عادة– من الفلاحين قبل نضوج الزرع ، وهذا يعني ان الفلاح سيبيع الحاصل بنصف الثمن او اقل . ان مثل هذه الحالة لا بد وانها خلقت طبقة من المنتفعين الذين كان همهم شراء محاصيل

الفلاحين باثمان زهيدة، او انها خلقت طبقة من المرابين تشتغل بتسليف الفلاحين بفائدة باهضة لحين نضوج الحاصل. والى الان نجد هذه الطبقة تمارس اعمالها في الريف العراقي، الا ان الجمعيات الفلاحية والتسليف الزراعي كفيل بانهاء نشاط المرابين .

اود هنا ان اشير الى ان فكرة العلاوى الشعبية تعتبر من اهم الخطوات في سبيل تحرير الفلاح من براثن المرابين اضافة الى تخفيف اسعار المواد الغذائية على المستهلك في المدينة .ان اصحاب العلاوى الخاصة يمارسون نفس الدور الذي مارسه المرابون في العصور الوسطى. ان اصحاب العلاوى في المدن يقومون بتسليف الفلاحين نقدا او عينا بشروط منها ان على الفلاح ان يجلب كل ما يزرع ويبيعه عن طريق هذا الوسيط المرابي صاحب العلوه. اضافة الى دفع رسوم اخرى .

وهنا يقع ابن الريف في شراك ابن المدينة صاحب المال. وهنا يبرز استغلال الطبقة الراسمالية من سكان المدن للطبقة الكادحة من سكان الريف.انه تثمير لرأسمال المدينة ولكن على حساب الريف. كذلك فان تجمع المحاصيل الزراعية بيد حفنة من اصحاب العلاوى المحتكرين للمواد المنتجة سيجعلهم يتحكمون كما يشاءوا بالاسعار. وهنا ياتي دورهم الثاني وهو استغلال سكان المدينة – خصوصا الطبقة الفقيرة منهم – عن طريق التحكم بالاسعار .

ان المنطق الاشتراكي الثورى – الذي يضع مصلحة الجماهير الكادحة الريفية والحضرية اساسا لكل تغيير – يحتم الاخذ بمبدأ تعميم العلاوى الشعبية الكفيلة بضرب كل احتكار .

٦– لما كان الفلاح قد باع محاصيله بسعر النصف فانه قد ترك مع شيئ قليل جدا ليعتاش عليه طيلة الفصل الزراعي . لذلك لم يكن بوسعه ان يختزن اى شيئ لوقت الحاجة والضيق. وان وضعا كهذا لا بد وان جعل الفلاح يعيش في حالة من الدين المستمر. ان اى موسم ردئ المنتوج او اى حرب او مجاعة كانت تؤدى الى انخفاض عظيم جدا بالسكان.

٧ــ عندما ترك الفلاح بلا أمل تحت رحمة الاقطاعي وموظف المالية والكوارث الطبيعية والحروب نجده اعتبر الهجرة من الريف هي الحل الوحيد لمشاكله. ولكن حتى الهجرة لم تكن سهلة عليه. كان عليه اولا ان يبتر علاقته بعائلته او قومه وهذا عمل صعب جدا في مجتمع نظامه الطبقي على درجة من الصرامة. اضافة الى ذلك فانه إن هاجر فسيبقى في خوف مستمر من ان تعثر به السلطات او الدائن المرابي ويرسلوه الى الحقل ثانية او الى السجن . وهكذا كانت العبودية امرا ملازما للفلاح عبودية للارض ولمن يملكها او يتصرف بحق استثمارها.

ففي سنة ٥٤١هـ وكنتيجة للضرائب العالية التي فرضها السلطان عماد الدين زنكي على فلاحي الموصل. نجدهم قد هاجروا الى منطقة ماردين حيث ان اميرها كان لا يأخذ من الفلاحين الا العشر. فما كان من من عماد الدين زنكي الا ان اصدر انذارا الى امير ماردين يهدده فيه بارسال الفلاحين الى الموصل والا فانه سيقود الجيوش ويسحق ماردين ومن فيها. ازاء هذا التهديد رضخ امير ماردين وارسل جميع الفلاحين الى الموصل. « ١٤ »

فلا غرابة اذن ان ينتقد تاج الدين السبكي ديوان الجند المتولي لامر الاقطاعات العسكرية مستنكرا « الزامهم الفلاحين في الاقطاع بالفلاحة » مؤكدا ان « الفلاح امير نفسه لا يد لآدمي عليه ». « ١٥ »

من كل ذلك يبدو جليا ان الاوضاع المادية والنفسية المتردية التي عاشتها الجماهير الفلاحية جعلت هذا القطاع اكثر القطاعات الكادحة ادقاعاً في الفقر. ولما لم تجد نفعا « مجالس النظر في المظالم » نجد ان بغداد وغيرها من مدن العراق والعالم الاسلامي شهدت تجمعات وتظاهرات فلاحية كانت عادة تتمركز في داخل المساجد الجامعة لتعلن عن سخطها ورفضها للواقع الفاسد الذي تعيشه. وذلك بمنع الخطباء من القاء خطب يوم الجمعة وكسر منابرهم . وهذا اخطر ما يمكن ان يفعله المسلم في

---

(١٤) ابن الأثير، الباهر في تاريخ الدولة الاتابكية ص١٤١.

(١٥) السبكي، معيد النعم ص٤٨.

ذلك الوقت ليعبر عن تمرده وثورته . ففي مثل تلك الخطب كانت تؤكد خلافة الخليفة وسلطنة السلطان ويمدحان ويدعى لهما . فمنع ذلك وكسر المنابر لهو اخطر من تحطيم صور وتماثيل الطغاة ، بل هو بموازاة ضرب دور البث الاذاعي الان. فالمنبر اشبه بمرسلات الاذاعة اليوم والخطيب هو مذيعها ومذياعها . ففي احدى تلك الانتفاضات الفلاحية تنقل لنا المصادر التاريخية ان العوام ثاروا في سنة ٤٥٣هـ وانهم ارادوا قتل ابن فضلان اليهودى الذي تولى ضمان ضياع امير المؤمنين « الخليفة ». لقد اراد العامة قتله لولا ان يتدخل ممثلوا الطبقة الارستقراطية المالكة الاقطاعية ، اعني حرس الخليفة، ونقلوه الى باب المراتب احدى ابواب دار الخلافة حيث المحلة التي كان يسكنها كبار التجار واصحاب الاموال.

وهكذا اتفقت مصلحة الطبقة المستغلة من المسلمين مع اليهود من اجل ابتزاز الطبقة الكادحة . وفي سنة ٤٦١هـ انتفض فلاحوا منطقة عكبرا « شمال بغداد » فيصفها شاهد عيان فيقول « فلما كان في يوم الجمعة. وانا في حلقتي بجامع الخليفة . كثر النفير من المسلمين بما قد تم عليهم من الظلم. واستغاث اهل عكبرا. وقالوا: قد اخذت اموالنا. وضربنا وهتكت نساؤنا فانزعج الناس لذلك أشد الانزعاج» «١٦» وفي منتصف القرن السادس الهجري نجد ان المقاومة تتخذ طابع العنف حيث ان ثلاثة من الفلاحين دخلوا على عامل الخليفة على منطقة نهر ملك ويدعى الحويزي فاردوه قتيلا .يقول ابو الفرج ابن الجوزي عن الحويزي هذا انه « احمد بن محمد الحويزي كان عاملا » موظفا مالياً » على نهر ملك فكان يؤذي الناس ويعلق الرجال في السواد ويعذبهم ويستخرج الاموال فلا يتلبس بها اظهاراً للزهد... وكان كثير التلاوة للقران كثير التسبيح حتى اني اتفقت في خلوة حمام وهو في خلوة اخرى فقرأ نحوا من جزئين حتى فرغ من شأنه هذا مع الظلم الخارج في الحد ..» ولما دفن حفظ قبره حتى لا تنبشه العوام «١٧». ان الامثلة التي اقتصرت عليها الان تشير الى مرحلة دقيقة في النضال

(١٦) Bulletin of the School of Oriental and African Studies. Vol., X IX,2, 1957, P.285.

(١٧) المنتظم ج١٠ ص١٦١–١٦٢.

الذي خاضته الجماهير الكادحة في عراق القرون الوسطى . اعني بذلك مساندة العامة من اهل المدن للفلاحين اهل الريف. ولما كان العامة من سكان المدينة هم في الحقيقة افراد الطبقة السفلى والتي اغلبها مكون من الصناع واصحاب الحرف البسيطة وصغار الباعة والعطلة فهذا يعني وجود نوع من وحدة نضال طبقي بين العمال سواء اكانوا عمالا صناعيين ام زراعيين. ليس غريبا ان يحدث ذلك طالما ان العدو المشترك للعمال والفلاحين كان الاقطاعيون من القواد العسكريين ورجال القبائل وعمال الضرائب ممثلوا السلطة الارستقراطية المستغلة .واخيرا اود ان اختم بالقول .

١ــ ان للكادحين من ابناء الريف العراقي تاريخ حافل بالنضال من اجل حياة افضل بعيدة عن كل صور الاستغلال والاستعباد .

٢ــ ان قوى الاقطاع المسندة من قبل السلطات الادارية كانت قد مارست شتى صنوف الظلم والاضطهاد من اجل الحفاظ على امتيازاتها القائمة على ضرب كل التطلعات المشروعة للكادحين .

٣ــ لقد استغرق هذا الصراع الطبقي فترات زمنية طويلة وتمخض هذا الصراع عن انقلاب في توازن القوى المتصارعة ورجحان كفة الجماهير الفلاحية فالطبقة الفلاحية الان تخوض المعركة والى جانبها قوى الثورة الاخرى .بينما نجد ان قوى الاقطاع قد تخلت عن الجزء الاعظم من دورها كقوة مضادة لثورة الكادحين .

الا ان هذا لا يعني ان الجماهير الفلاحية قد كسبت المعركة النهائية. فقوانين الاصلاح الزراعي لا يمكنها وحدها ان تزيل التركة الثقيلة المادية والنفسية التي خلقتها العهود الاقطاعية ذات الماضي الطويل. ان كل ما فعلته القوانين الثورية هي انها وضعت الاطار اللازم لعملية التغيير الثوري وبقي على الجماهير الفلاحية ــ الواعية لطبيعة دورها التاريخي في الصراع الطبقي ــ ان تملأ هذا الاطار بالمحتوى الانقلابي وذلك عن طريق مساهمتها الفعالة في مرحلة البناء التي يخوضها القطر الان .